نوفيلا

دنيا جديدة

قصة من وحي الواقع

بقلم

حنان حنفي أحمد

دنيا جديدة
حنان حنفي أحمد
Chnaimat Ahlam

مقدمة

أولا أشكر الظروف التي عرفتني على بطلة قصتنا الجميلة

ثانيا هذه القصة بطلتها امرأة عانت وشاهدت الكثير من الظروف العصيبة على مر سنوات عمرها إلا أنها نجت بفضل الله ووصلت لبر الأمان بسلام.

ثالثا معظم سرد القصة جاء على لسان البطلة كما هو، فلم أجد أفضل من تعبيراتها وكلماتها في وصف ما حدث معها، شعرت من خلال سردها عن قصتها أنها كاتبة ومارست الكتابة من قبل، ربما الفضل في ذلك يعود لعشقها للقراءة.

دنيا

الماضي ذهب ولن يعود وسيبقى كما هو، فالأفضل تركه وشأنه، والعوض عن كل الآلام ليس في هذه الدنيا؛ إنما في الجنة بإذن الله.

سنبدأ القصة بمرحلة الطفولة من حياة البطلة؛ بالرغم من أن هذه الفترة أصعب فترة مرت بها في حياتها، تداعيات ذكريات هذه المرحلة أرهقتها كثيرا لذلك توقفت عن السرد فترة حتى تستعيد توازنها وقد قدرت ذلك تماما وتركتها على حريتها، وأيضا لألتقط أنفاسي أنا الأخرى؛ فما عرفته منها أبكاني حقا وترك في نفسي عظيم الأثر.

الفصل الأول

دنيا طفلة جميلة الروح والقلب، كانت لديها أخت وحيدة اسمها رحمة تصغرها بعام وبضعة أشهر، بدأت معاناة رحمة مع المرض منذ صغرها، كانت تتردد دوما على الأطباء، لم يترك والديها بابا إلا وطرقاه، كانت بِنيتها ضعيفة وتعاني من التأخر الدراسي بسبب مرضها، ولكن مع ذلك كانت طفلة جميلة ومحبوبة، كانت تحوذ على اهتمام أبويها بسبب مرضها المستعصي، لقد حاولت دنيا لفت انتباههم لها مرارا ولكن دون جدوى، لم يكن ذنبها أنها ولدت بصحة جيدة، كانت تريد حبهما وحضنهما ليس أكثر وكأي طفل عادي يلقى اهتمام وحب من أبويه.

شعرت دنيا بالغيرة من شقيقتها رغما عنها؛ فالجميع كان يعاملها باهتمام ورفق، ومع الوقت لم تعد تلتفت لمرض شقيقتها وتعبها فقد آلفته، وذات يوم كانت رحمة تتألم بشدة، وأعطتها والدتها أدويتها ولكن لم تجدي نفعا، انتظرت بصبر تُحسد عليه زوجها الذي كان في عمله، وكانت معه على الهاتف لحظة بلحظة تحسه على القدوم بسرعة، وفي غرفتهما حاولت دنيا أن تخلد للنوم ولكن أنين رحمة كان متواصل مما أثار ضيقها، تبرمت منها ومن صوتها فقد أوشكت على الانهيار من قلة النوم، ثم جاء والدهما واصطحب رحمة ووالدتها إلى المشفى وتركاها مع جيرانهم، انتظرتهم فترة طويلة وقد تملكها القلق.

عاد الأبوان محملان بالهم في سيارة اسعاف، وعندما رأتهما دنيا سألتهما:

ـ أين رحمة؟

لم تجد منهما جواب، وبكاء أمها المتواصل كان كافيا لتفهم؛ فقد كانت في العاشرة من عمرها وأدركت ما يحدث، أسرعت على غرفتها وفتحت الباب بالرغم من محاولة والدها منعها من ذلك، دلفت إلى الغرفة وصدرها يعلو ويهبط في قلق وخوف سيطر على عقلها، أزاحت الملائة من على وجه شقيقتها لتتأكد، فقد رفض عقلها الصغير فكرة موتها، رأتها ترقد كالملاك في سكون، تذكرت أنينها الذي كانت تستاء منه من قبل، تمنت لو كان ما يحدث مجرد حلم وتستيقظ شقيقتها من جديد، بكت وقالت لها: سامحيني، عودي إليّ يا شقيقتي الوحيدة، عودي إليّ وسأفعل أي شيء لكِ.

ولكن مع الأسف لقد كان ما يحدث هو الواقع الذي لا مفر من مواجهته وتذوق علقمه رغما وغصبا، ولم يبقى من رحمة سوى كراساتها المدرسية؛ التي احتفظت بهم دنيا في خلسة من أمها، لتكون لها ذكرى أخيرة منها حتى ولو كانت بسيطة؛ لتلجأ إليها كلما اشتاقت لشقيقتها الراحلة.

انتظرت دنيا من أبويها تغيير معاملتهما لها، لقد أصبحت ابنتهما الوحيدة الآن، ستكون محط اهتمامهما، ستعرف معنى التدليل أخيرا، هذا ما فكر به عقلها الصغير، ولكن مع الأسف خيب الاثنان ظنها، لقد كانت صدمة كبيرة عليها لم تستطع أن تتخطاها وقد زاد من الأمر سوءا هو نظراتهما لها، وكأنها هي المذنبة لأنها على قيد الحياة وشقيقتها هي من رحلت، لم تكن تعلم كيف تقابل نظرات الاتهام في عينهما، ماذا فعلت، ماذا جنت؟ هي لم تقتل شقيقتها، المرض هو ما قضى عليها وليس لها يد في موتها، تساءت بالرغم من صعوبة أثر السؤال على نفسها:

هل كانا سيرتاحا لو كنت أنا من مت؟

سؤال صعب واجابته كانت أصعب، ولقد مرت تلك الفترة عليها بثقل رهيب أنهكها كطفلة، وهنا قررت أن تبتعد وتعيش عالمها وحدها، وقد كانت هذه هي بداية وحدتها التي لازمتها لفترة لا بأس بها.

التمست دنيا الحب من غيرها، حاولت أن تشعر بالحب والانتماء مع من تقابلهم في حياتها، كان لديها جيران تعلقت بهم، أم رقيقة القلب ولديها ثلاثة فتيات أكبر منها، كانوا ملاذها طوال الوقت، حيث تجلس معهم طوال اليوم، تأكل وتشرب وتلهو معهن ولا تذهب إلى بيتها إلا عند النوم، ما أسعدها أن أمها تركتها ولم تضيق عليها، ولكن ما أحزنها هو عندما يسافرون إلى مصيف أو خلافه فيتركونها لوحدتها القاتلة، لقد كانوا بالنسبة لها الشمعة الأولى التي أضاءت حياتها، فأضافت لها بهجة وسرور، وإن اختفى هذا الضوء تخبو حياتها من جديد، لم تنسى قط ذلك اليوم عندما فاجأوها في يوم ذكرى ميلادها وأعدوا لها كعكة مذهلة، في ذلك اليوم عندما شعرت أنها محط اهتمام من حولها فرق معها كثيرا، لقد أعطاها ذلك دفعة لتكمل حياتها وتشعر بالاستمتاع كبقية الأطفال، ولأن دوام الحال من المحال؛ حدث ما كانت تخشاه وتركوا جيرانها منزلهم وذهبوا إلى منزل جديد بعد وفاة شقيقتها بعامٍ واحد.

تعلقت دنيا بعمتها زينب وأولادها، لقد كانوا هم الشمعة الثانية التي أضاءت حياتها من جديد، ولكن مع الأسف بُعد المسافة حال بينهما، فقد كانوا هم من بلدة بالصعيد ودنيا من القاهرة، كانت تلقاهم مرة من كل العام، وقد كانت عندما تأتي عمتها لزيارتهم تمكث معهم شهر كامل، هذا الشهر كان بمثابة العيد السنوي الذي تنتظره بفارغ الصبر، كانت تنتظره وتستعد له بشوق وحب، وفي غيابهم لجأت للقراءة كبديل للبحث عن الإضاءة في الأيام الأخرى القاحلة، لقد قرأت ما تطوله يديها وكان أبطال كتبها بمثابة اخوة لها تألمت لآلامهم وفرحت لفرحهم، كانت تعيش معهم في عوالم أخرى بخيالها ولقد كان خيالها خصب بالفعل.

تعلقت دنيا بأشياء شتى في حياتها، لقد بدأت بالأشخاص ثم بالأشياء التي تستخدمها في حياتها، كنوع من التعلق العجيب، لم تكن ترى في هذا أية غرابة؛ بل لم تشعر بأن ما تفعله خطأ وقد تسرب لبقية حياتها شيئا فشيئا.

الفصل الثاني

بعد كل ما مرت به دنيا مع الأسف تم فرض الوحدة عليها فرضا، ولكنها مع ذلك آلفتها وانسجمت معها إلى أن توحدت معها، لم تكن تخرج مع أحد، لم يكن لها أصدقاء بالمعنى الحرفي، ورفضت الاختلاط بين الجنسين فلم تفعل كزميلاتها في الدراسة ولم تتعرف على شاب واحد وتجاهلت الجنس الآخر تماما.

التحقت بمعهد فني لمدة عامين ولم تكمل؛ فقد اكتفت بذلك، وقد كانت تحب التدريس للأطفال الصغار؛ لذا مارست هذه الهواية مع أطفال عائلتها ومن حولها، وكم كانت تشعر بالسعادة أنها ساهمت ولو بقدر ضئيل في تعليمهم وإرشادهم.

بعد أن أنهت دراستها رفضت أن تلتحق بمجال العمل، لم تكن تريد الاختلاط بأي أحد، وقد حاولت والدتها الضغط عليها لتعمل بحجة أن تأخذ خبرة في الحياة بدلا من حبسها لنفسها بالمنزل بهذا الشكل، وعندما تدخلت جارة لها أن تلتحق بعمل في مدرسة قريبة من منزلها، وقد ظنت ان هذا العمل سيسعدها نظرا لأنها تعشقه، ولكن في يومها الأول بالمدرسة مرضت مرضا شديدا فلم تذهب، وقتها شعرت بالسعادة أن فرصة العمل ذهبت دون رجعة، وكانت سعيدة بعقلها الباطن الذي رضخ لرغبتها الداخلية فحقق لها ما تتمناه، ولكن توسطت جارتها لها مرة أخرى لتلتحق بالعمل، ويومها عندما خرجت من باب المنزل شعرت بثقل رهيب في أقدامها فلم تستطع أن تتحرك خطوة؛ فعادت لأبويها وأخبرتهما بتعبها وأنها لا تود الذهاب، ولكن هذا لم يعجب أمها التي قالت:

ـ أنتِ تتدعين المرض لتتهربي من العمل، أليس كذلك؟

فأجابتها دنيا:

ـ أقسم لكِ أنني لم أستطيع التحرك خطوة، لقد شعرت وكأن قدمي قد شُلت

سألتها بدهشة:

ـ كيف حدث هذا، لقد كنتِ بخير حال قبل النزول؟!

عندها تدخل والدها وقال لها:

ـ اتركيها ولا تضغطي عليها، ألم تري كيف تتعب بشدة كلما همت بالذهاب إلى العمل

ثم توجه بالحديث لدنيا وقال:

ـ هيا يا بُنيتي ادخلي لترتاحي في غرفتك.

ودخلت دنيا إلى غرفتها وهي سعيدة وقد كانت ممتنة كثيرا لوالدها لأنه وقف في صفها أخيرا، أما عن أمها فقد رضخت لرغبتها ولم تحاول التدخل في الأمر مرة أخرى، وبالفعل لم تلتحق دنيا بمجال العمل أو تخرج في مكان بعيد عن منزلها قط.

عندما أتمت دنيا عامها الثاني والعشرون لم يعد يكفيها عالم القراءة الجميل، لقد لجأت لوسيلة أخرى لتخرجها من وحدتها قليلا، كانت تراسل الفتيات عن طريق البريد بواسطة الإذاعة المصرية بكل محطاتها، من خلال هذه الاذاعات تعرفت على هواية المراسلة وأرسلت اسمها وعنوانها وسنها مشترطة شرطان، مراسلة الفتيات فقط وأن يتناسب عمرهن مع عمرها، ثم جائتها رسائل كثيرة ومن ذكور أيضا وفتيات أصغر عمرا، لكنها لم تلتفت لأي منهم، ثم بالتدريج أصبح لها صديقات يناسبن عمرها، من ضمنهن صديقة أمازيغية من الجزائر، كانت تحب الطبخ بشدة وتبادلا معا الوصفات وكذلك المعلومات والبطاقات السياحية عن بلديهما، واستمرت صداقتهما سنوات طويلة حتى تزوجت صديقتها وانتقلت إلى دولة أجنبية.

لم تتوقف عند ذلك وأكملت في طريقها إلى أن أصبح لديها صديقات من جنسيات مختلفة، من العراق، الجزائر، الصومال، وسوريا، كلهن كانت تتبادل معهن المعلومات والكروت السياحية والثقافات المختلفة مع كل بلد، كانت تلقب نفسها بالزهرة السوداء، كانت ترتاح لهذا اللقب فهو قريب الشبه منها، وانشغلت بهذا العالم بشدة وانغمست فيه، إلى أن ذات يوم جائتها رسالة من فتاة سورية اسمها تقوى ترجوها أن تقبل صداقتها رغم أنها تصغرها عمرا، قبلت صداقتها وتحدثت معها، رأتها بقلبها وتعاهدتا أن تكونا أختان، لقد تعرفت دنيا عليها بوقت صعب وفارق في حياتها، فكانت خير معين لتخرجها من أزمتها ووحدتها، عشقت أن يحبها أحد دون أية مصلحة أو غرض، كانت تبثها همومها وأحزانها، كانتا تتشاركا أدق تفاصيل حياتهما، وكل منهما تعرفت على أسرة الأخرى، عندما حدثتها هاتفيا للمرة الأولى كانت وكأنها ملكت الدنيا ومافيها، وقتها كانت المكالمات الدولية مكلفة، لذا كانتا تتحدثان هاتفيا على فترات متباعدة، وتبادلت الاثنتان الهدايا عن طريق قريبة لها تقيم بالقاهرة، وكانت أمها ومن حولها مندهشون من علاقتهما الوطيدة ومن وجهة نظرهم تُصنف على أنها غريبة، فقد تعلقت دنيا بها بجنون، وحدث ما كانت تخشاه ألا وهو غياب شعاع الضوء الجديد الذي أطل على حياتها، إذ قلت رسائل تقوى تدريجيا بسبب مشاكل كانت تمر بها واختفت بالفعل لشهور، وبدأت دنيا تتألم لفراقها عنها، وكانت ترسل لها بمئات الرسائل دون مجيب، في تلك الفترة كانت دنيا حامل في ابنتها الأولى، وسنتطرق لمرحلة زواجها بعد قليل في السطور القادمة، وقد أطلقت على ابنتها اسم صديقتها من شدة حبها لها.

عندما أوشكت دنيا أن تفقد الأمل في محادثة صديقتها بعد انقطاع دام لفترة ليست بالقصيرة؛ عادت علاقتهما من جديد ولكن تلك المرة عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة وعاد لها شغفها من جديد.

****

كانت دنيا ابنة لأب أكبر اخوته وكذلك والدتها؛ لذلك فرصة زواجها من أقاربها كانت معدومة، ولم يتقدم لها أي عريس؛ ربما لأنها فتاة عادية ليست بالجميلة ولا القبيحة، وأيضا فرصتها تدنت أكثر نظرا لأنها لم تكن تخرج إلا نادرا ولم تلتحق بمجال العمل، وقد أوشكت دنيا على الاقتراب من السادسة والعشرون ولم تسلم من حديث البعض عنها، فمرة تسأل جارتها أمها:

كيف ستتزوج ابنتك وهي لا يراها أحد؟

وكانت أمها تفوض أمرها لله وتدعوه ليعجل بذلك الأمر، كانت في تلك الفترة كل الفتيات حولها من أقاربها قد تقدم لهن العريس المناسب، ومنهن من خُطبت أو تزوجت بالفعل، وفرحت دنيا لفرحهن دون أن تشعر بالغيرة، لم يكن هدفها الأساسي الزواج، ولكن شعور الأمومة كان مسيطر عليها، فقد كانت تعشق الأطفال وخططت ذات مرة في فكرها أن تذهب لدور رعاية أيتام وأن تتبنى أطفال من هناك لتشبع شعور الأمومة بداخلها وأن تنال ثواب كفالة اليتيم، وقد كان هذا هو سرها الصغير الذي لم تطلع أحد عليه قط.

****

الفصل الثالث

مرت الأيام ثم ذات يوم كان من أشد الأيام المظلمة التي مرت على دنيا في حياتها، مات والدها وتركها هي ووالدتها وحدهما، وتألمت لفراقه بالرغم من بعده عنها، بكت عليه وسامحته من قلبها على معاملته الجافة معها.

جائهما الكثير من الناس لتعزيتهما، ومن ضمنهم امرأة قريبة لوالدها، لم تكن رأت دنيا منذ فترة طويلة، تكلمت معها وارتحت لها بشدة، ثم بعد هذه الزيارة كررت زيارتها لهما بعد أسبوع واحد، كانت تحمل مفاجأة لدنيا برغم الظروف التي كانت تمر بها هي وأمها، لقد عرضت على دنيا عريس قريب لزوجها، كان كل طلبه في العروس أن تكون ملتزمة، ولم تجد قريبتها أفضل من دنيا على حد قولها، وقد حاولت دنيا أن تبحث عن عيب به لتختلق حُجة لرفضه فلم تجد، فهو كان ملتزما ويكبرها بعامين ونصف ولقد حاصرتها قريبتها لتقابله وتراه، وبعدها لها أن ترفض أو تقبل الأمر، ولقد دبرت لهما موعد عندها في منزلها، وفي هذا اليوم قابلت دنيا زوجها المستقبلي للمرة الأولى.

جلست دنيا مع أمجد عشر دقائق، لم تلاحظ ملامحه فقد كانت تشعر بالخجل منه، وكان هو يسألها فترد عليه على مضض، ثم بعدها أسرعت على الغرفة وأغلقت على نفسها، ولم تكن تعرف وقتها ما هو قرارها، بلغها بعدها من قريبتها أنه يشعر بالقبول من ناحيتها ولم تجد هي سببا للرفض فأخذت تدعو الله أن يهديها للخير واستخارت وعندما شعرت بالراحة وافقت عليه.

كل شيء بعدها تم في سرعة شديدة بالرغم من أن موت والدها لم يمر عليه سوى شهر واحد، والجميع أكد لها أن الله يريد أن يزيح الهم من عليها من خلال ارتباطها بأمجد، ولكنها كانت متخوفة من هذه السرعة التي جرت بها الأمور، كانت حجته أنه لا يشعر بالراحة عندما يزورها بالمنزل، خاصة وأنه كان لابد من وجود أحد بالمنزل أثناء وجوده، كان الجميع يضغط عليها لتوافق، حتى عمتها التي تحبها وتعشقها مما جعلها تساير الجميع، وبعد شهرين بالضبط صرح لها بحبه ولكنها صدمته أنها لا تحمل له أية مشاعر، لم يكن بيدها فقد أوصدت قلبها وكأنها تحمي نفسها من هذا الحب، ولكن بعد عام واحد استطاع أمجد أن يكسب ودها ويستخرج من قلبها ينابيع الحب الراكدة، وحددوا ميعاد كتب الكتاب فكانت أول من تزوجت وأول من أنجبت من بين فتيات عائلتها، وقد جبر الله بخاطرها.

بعد كتب الكتاب اصطدمت بمشكلة لم تكن في الحسبان، فهو لم يكن لديه منزل خاص به والإيجار مع الأسف مرتفع ولا يناسب مرتبه، وقد حاول إيجاد حل لهذا الأمر ولكن دون جدوى، لذا مكثا الاثنان مع والدته؛ لتبدأ حياتها الجديدة وهي لا تعلم ما تخفيه الأيام لها.

تعلقت دنيا بزوجها، كانت تشعر بالوحدة والألم كلما تركها وذهب إلى العمل، وعندما كان يتأخر عليها كانت تؤنبه بشدة، في البداية كان يتعامل مع تعلقها له بلين وود ولكنه بدأ يشعر بالسأم

منه، وفي الكثير من الأحيان كان يشعر بالغرابة من عاطفتها المفرطة وخاصة علاقتها بصديقاتها وبالأخص تقوى.

****

اصطدمت دنيا بطباع حماتها المسيطرة، وكان من الواضح أنها ندمت على موافقتها أن يمكثا معها، كانت تريد فرض سيطرتها ووجودها عليهما، ثم لجأت دنيا بالدعاء إلى الله تطلب منه أن يفرج همها، ومرت أربعة أعوام بحلوها ومرها ودنيا تتألم بسبب هذا الوضع، وظل أمجد متمسك بهذا الوضع؛ إلى أن نشب خلاف بينه وبين والدته، جعله يفكر جديا في أن ينتقلا لمنزلهم الخاص، فشرع في بيع أرض يملكونها ثم أخذا يجهزا منزلهما الخاص وانتقلا إليه بعد عام، المكان الجديد لم يكن أفضل بل أقل مستوى، وواجهتمها صعوبة التأقلم معه، ولكنها مع ذلك كانت سعيدة بأنها تجلس في منزلها دون أية منغصات أو أحد يتحكم بها وبابها مقفل عليها ومفتاحه معها هي وحدها، كم كان شعور رائع أثلج قلبها وقتها.

كانت سعادة دنيا لا توصف عندما رزقها الله هي وزوجها بفتاة والتي أطلقت عليها تقوى على اسم أعز صديقاتها، وقد كانت سعيدة بابنتها كثيرا وشعرت أنها تعويض من الله لها مقابل الأيام المظلمة التي ظللت على حياتها لفترة، وبعدها بعام واحد رزقها الله بفتى اسماه عادل لتكتمل فرحتها، ثم مرت عدة أعوام وحملت للمرة الثالثة والتي لم تكن مخطط لها بالمرة، ولكن عطايا الله رزق والرزق يأتي في حينه سبحانه جل وعلا، فقد رزقها الله بتوأم جميل فتى وفتاة هما سليم وسهى، وكان سليم شديد الحنية عليها منذ صغره، فكان يغدق عليها بحبه وحضنه الصغير، وقد عوضها ابنائها عن الاحساس بالوحدة التي كانت تعاني منها منذ صغرها فكانوا لها ابناء واشقاء أيضا بعدما حُرمت من شقيقتها الوحيدة وهي صغيرة، ثم أصبحت علاقتها مع أمها أفضل من الأول بكثير؛ فقد تفجر في قلبها ينبوع حنان وحب غمراها، وفعلت الكثير والكثير من أجلها ليكتمل بذلك استقرارها النفسي والعاطفي.

****

كانت حياة دنيا مستقرة إلى حد ما، وفي هذه الفترة دخل منزلهم زائر جديد؛ هو الحاسب الآلي والانترنت بعالمه الساحر، وقتها كانت رائجة المنتديات، وبدأت دنيا تدخل إلى هذا العالم الساحر وتألفه، ظلت تنتقل من منتدى لمنتدى حتى استقرت على واحد شعرت بالراحة بين أعضائه، تعرفت من خلاله على صديقات كثيرات لتكمل ما بدأته سابقا عن طريق المراسلة، كانت تضحك وتتسامر وتسهر معهن، وقد كانت تعم عليهن روح جميلة كاخوات، ولقد حاولت أن تكتسب مهارة جديدة فلجأت لتعلم الفوتوشوب، وبالفعل احترفت الشغل على برنامج محدد وصممت عليه صور كثيرة وأبدعت فيه، ثم شرعت في تعليم زميلاتها، وكانت سعيدة بتفاعلهم معها وشعرت أنها تفعل شيء هام أخيرا.

في هذه الفترة أخذها المنتدى من منزلها وحياتها؛ لذا قررت أن تتركه لفترة وتلجأ لآخر غيره، وهناك تعرفت على صديقة جديدة اسمها داليا، لتبدأ رحلة ومرحلة جديدة هامة في حياة دنيا.

****

كانت بداية تعارفهما موضوع يتحدث عن نعمة الأخ، طرحته دنيا وكيف أنها نعمة لا يعلم مقدارها سوى من فقدها، تحدثت دنيا عن شقيقتها التي فقدتها بسبب مرضها، وكيف كانا أبويها يهتمان بها وحتى بعد أن ماتت غرقا في حزنهما عليها ولم يلتفتا إليها، وظلت دنيا وحيدة كما هي ولم يخرجها مما هي فيه سوى القراءة، بعدها تواصلت داليا معها خاص، وحدثتها أنها تأثرت بقصتها لأنها تشبه قصة حياتها هي الأخرى، فقد نشأت داليا وحيدة دون اخوة، وكان والديها دائما الشجار مع الأسف، كانتا شبيهتان في ظروفهما وكأنهما كانتا تائهتان وتلاقى لينقذا بعضهما.

عرفت دنيا عن داليا كل شيء، فقد كانت لديها ابن واحد ومطلقة، فقد تزوجت وانفصلت عن زوجها بعد عام واحد، وكانت مسؤولة عن ابنها وأمها وتعمل بإحدى الشركات لتنفق عليهما.

بدأ الجميع يتجه إلى الفيس بوك وظلت دنيا على اتصال مع داليا من خلاله وكثرت محادثتهما معا، وقتها شعرت أنها أخيرا وجدت شقيقتها التي حُرمت منها وهي صغيرة، لقد دخلت قلبها من أوسع أبوابه، لم تكن هناك من صديقاتها الأخريات اللاتي اقتربت منها كداليا، كانتا متشابهتان في الكثير من الأشياء، العمر، الظروف، الأفكار والاهتمامات، وقد كان أمجد في البداية يشعر بالضيق والغيرة بسبب علاقتهما؛ إلى أن بدأ يلين شيئا فشيئا، ويشعر كيف فرق وجود داليا في حيات زوجته، ومدى احتياجها لها، لقد عوضت جزء في قلبها كان فارغا يفتقد الاحساس بالحب، كان حبا من نوع آخر لم يرى مثيل له؛ لذا بدأ يرضخ لهذه الصداقة بل ويحترمها.

الفصل الرابع

كانت دنيا تقطن بالقاهرة وداليا بمحافظة أخرى بعيدة عنها وقد كان هذا عائقا في سبيل أن تتقابلا وتريان بعضهما البعض، وذات يوم جاء لداليا تدريب بالقاهرة واتفقا الاثنتان على أن تتقابلا أخيرا وجها لوجه عند والدة دنيا؛ رغم اعتراض أهل داليا على الأمر لأنها ستدخل منزل أحد للمرة الأولى ولا تعرفه، ولكن هيهات فقد كانت دنيا قريبة من قلبها وهذا يكفي لها، في هذا اليوم كانت داليا تقف تنتظر وصول دنيا، رأتها دنيا من بعيد، سبقها قلبها قبل قدميها، جرت نحوها ولمحتها داليا وعرفتها رغم ارتداء دنيا للنقاب، احتضنا بعضهما بشوق، ثم أخذتها على منزل والدتها، هناك استقبلتها والدتها استقبال رائع، وقد أعدت لها أشهى الأطباق، تناولوا الطعام ومدحت داليا فيه كثيرا، وبعد انتهائهم من تناول الطعام أعطت داليا لدنيا حقيبة مليئة بالهدايا والحلوى لابناءها، وجلسا معا وتحدثا في أشياء كثيرة شتى، ثم ودعا بعضهما في مشهد مؤثر، ولولا الظروف وضيق الوقت لكانت دنيا لم تتركها أبدا لتذهب وتبعد عنها مرة أخرى، وقد كان هذا اللقاء بمثابة رشفة الماء بعد ظمأ طويل، لم يشبع الاثنان منه ولكنهما منيا نفسهما بلقاء آخر عن قريب.

بعد هذا اللقاء واصلا التحدث عن طريق الهاتف ووسائل التواصل الاجتماعي، لم تكن دنيا تجد الراحة إلا معها، وداليا هي الأخرى في أوقات كثيرة كانت تكون مثقلة بالهم ولكن فور أن تتحدث معها تنسى كل شيء في الحال.

***

تعددت مواقف المروءة من قِبل داليا؛ فعندما مرضت والدة دنيا وخضعت لعملية خطيرة وقفت إلى جانبها، وفي أي ظرف عصيب كانت أقرب من أقرب صديق أو فرد من العائلة، كانت صاحبة واجب ولم تتأخر في السؤال أو المشورة.

كانت دنيا دوما تردد أنها بمثابة شقيقتها التي عوضها الله بها، لقد نسيت أو تناسيت عن عمد كل معاناتها وهي صغيرة، لم تعد تذكر آلام وحدتها، لقد ملئت داليا عليها دنيتها الصغيرة.

لقد كادت الاثنتان أن يتقابلا للمرة الثانية بإحدى المصايف، ولكن فرق يومان فقط، ولم يتقابلا مع الأسف، وانتظرت دنيا أن تجمعهما الظروف مرة أخرى بشتى الطرق ولكن الظروف كانت عنيدة للغاية معهما، فقد كانت ظروف داليا صعبة في ظل عملها ومسؤوليتها نحو ابنها وأمها، لقد عانت كثيرا وعاشت وحيدة دون مرافق وحبيب يحبها وتحبه، لقد ضحت في سبيل أن تربي ابنها ولتتفرغ لمسؤولياتها الكثيرة.

***

كعادة دنيا المبدعة انشغلت بشيء جديد وأبدعت فيه، فقد احترفت الكروشيه بالرغم من أنها لم تمسك ابرة من قبل، إلا إنها تحدت نفسها، دخلت على اليوتيوب وشاهدت العديد من الفيديوهات لتتعلم وتتقنه، وبالفعل أتقنته وشغلت بيديها العديد من الأشياء، ملابس، قفازات، مفارش، كوسترات، وحقائب، وقد كانت سعادتها لا توصف كلما نسجت شيء بيديها، ثم دخلت مع نفسها في تحدي جديد في مجال الاميجرومي، هو فن صناعة الدمى والمجسمات بالكروشيه، وشغلت منه ألعاب لابنائها ولجيرانهم والعائلة ولكنها لم تكمل فيه خوفا من أن يشوبه الأمر من حرمانية، ولقد اقترح عليها الكثير ممن انبهروا بشغلها أن تربح وتبيع منه؛ لكنها لم تستسيغ الفكرة خاصة أنها كانت ترى نفسها هاوية، وأيضا لأنها كانت تعمل لمجرد المتعة ولم تكن تحب أن تعمل على نفس القطعة مرتين، ودعمتها داليا فيما تفعله وشجعتها لأن تحترف الموضوع أكثر وقد عرضت عليها هي الأخرى أن تبيع مما تنتجه، لكن دنيا كانت سريعة الملل حيث أنها تلجأ لهواية لتجد نفسها بها ومن ثم تتركها لتتمسك بغيرها، وبالفعل لم تكتفي وبحثت عن التطريز على القماش وتعلمته ثم تصميم الميداليات؛ فلم تنتهي ابداعاتها الجميلة وصممت هدية جميلة منها لداليا صديقتها وحبيبتها وانتظرت بشغف أن تقابلها لتعطيها إياها.

***

كان عدد المرات التي تُحسب لداليا في وقفتها مع دنيا تزيد وتزيد، فلم تنسى دنيا ذات يوم عندما كان ابنها في مرحلة الثانوية العامة ومع الأسف لم يوفق في دراسته، وقتها كادت أن تجن لولا وقوف داليا إلى جانبها وأقنعتها أن كل مشكلة لها حل، وأن ابنها سيعوض ما فاته ويلتحق بكلية مميزة؛ حتى لو كانت خاصة، وقد تعهدت لها أن تدفع هي مصاريفها إن لزم الأمر، وعلى الرغم من عدم اقتناع دنيا وأن زوجها سيرفض الأمر، إلا أن قلبها اطمئن وشعرت بالراحة كعادتها فور أن تلجأ لها.

هناك موقف آخر لم تنساه دنيا أبدا لأنه جعلها تكتشف في نفسها شخصية جديدة تماما، عندما انتشر ظهر مرض الكورونا اللعين، وقد كان في بدايته وقتها، اشتكى سليم ابنها من ألم ببطنه؛ فأخذه والده للطبيب وكان وقتها قد فُرض حظر التجوال

فتأخروا واستبد بها القلق عندما حل وقت الحظر ولم يعودا الاثنان بعد، اتصلت بزوجها فقال لها:

- الدكتور طلب أشعة لأنه يشك أنها الزائدة الدودية

وقتها شعرت بالقلق ثم اتصل بها بعد قليل وقال:

- إنها الزائدة بالفعل ويجب أن نذهب إلى المشفى في الحال ليخضع إلى عملية على الفور

قالت له بلهفة:

- تعالى وخذني لأكون معكما

ـ لن أستطيع العودة بسبب اللجان المنتشرة بالشوارع، أنا بالفعل اتحرك بصعوبة بسببها

ـ وماذا سافعل في المنزل، هكذا سأموت من القلق

ـ تعالي في الصباح بعد انتهاء وقت الحظر.

انهت معه الحديث ولم تستطع أن تقتنع بكلامه، وتحدثت مع داليا، وكم تمنت داليا لو كانت بجانبها في موقف كهذا، لكنها كانت معها بقلبها، حاولت أن تطمئنها قدر الاستطاعة، ولكن دنيا لم تهدأ، اخذت تفكر ماذا تفعل وكيف تترك ابنها هكذا، ثم بعد تفكير طويل قررت أن تفعل أكثر شيء جنوني فعلته في حياتها، لقد قررت أنها لن تنتظر للصباح وأن تذهب له رغم الحظر.

كانت الساعة العاشرة ليلا وصمم عادل ابنها الاكبر على أن لا يتركها وحدها ونزل معها، المشفى كانت بعيدة عن منزلهم مع الأسف ولا توجد مواصلات بوقت كهذا والشوارع شبه خالية، استقلا الوسيلة الوحيدة المتاحة وقتها وهي التوكتوك وقد وافق أن يمشي بهما لمسافة محددة نظرا للحظر، ونزلا منه وتمشيا معا إلى أن وصلا لكمين وشرحت دنيا للضابط الموقف بالتفصيل وقدر الموقف ووصف لها كيف تكمل الطريق، وتمشيا لأكثر من ساعة وبرغم الظلام الدامس وعدم وجود أحد بالشوارع إلا أنها لم تشعر بالخوف، فقد كان همها أن تصل لسليم وتكون إلى جانبه بأي شكل.

وصلا إلى كمين آخر فحمدت الله لأنها لم تعد تعرف الطريق أو أين تذهب، شرحت للضابط الموقف مرة أخرى فكان كريم معها وطلب منها أن تنتظر لعل تمر من أمامهم سيارة وتقلهما معا، وبالفعل مرت سيارة وطلب الضابط من صاحبها أن يقلهما معه فوافق، ولكنه بعدما مشيا بهما قليلا قال لهما انه لا يعرف الطريق فنزلا واكملا على أقداهما، إلى أن وصلا لكمين ثالث وشرحا للضابط الموقف وهنا تحدثت دنيا مع زوجها الذي لم يكن يعلم بنزولها ليخبر الضابط أين مكان المشفى بالضبط، واستوقف الضابط سيارة لهما ووصلهما صاحبها إلى مكان المشفى بالضبط ووصلا على الساعة الثانية عشر ونصف، وقابلها أمجد بضيق واضح بسبب ما فعلته دون علمه، ولكن سعادتها كانت لا توصف إنها وصلت لسليم وكانت إلى جانبه أثناء تعبه، ولأن سياسة المشفى كانت تقتضي وجود مرافق واحد بغرفة المريض؛ فأقامت هي معه وبات أمجد وعادل ليلتهما بالسيارة ليشعر أمجد بالغيظ منها أكثر.

أكثر ما أسعد دنيا في هذه الواقعة هي جرئتها الغير مألوفة وأنها اكتشفت بداخلها قوة غير عادية بالمرة، وأيضا لم تنسى داليا التي كانت معها على الهاتف لحظة بلحظة لتصبرها وتهون عليها مما زادها قوة.

****

الفصل الخامس

كانت أحلام داليا ودنيا بسيطة، لقد أرادا في البداية لقاء بعضهما، ثم حلمتا معا بالذهاب لبيت الله الحرام معا، وأن تدفنا في البقيع هناك أشرف مكان على وجه الأرض، لقد أرادا أن تظلا معا في حياتهما وبعد مماتهما.

اضطرت داليا أن تنتقل لمحافظة أخرى من أجل عملها، وقد فُرض عليها حمل جديد ألا وهو غربتها عن مكانها وأهلها، لقد رفض ابنها الانتقال معها بسبب جامعته ودراسته، فاضطرت آسفة أن تسافر وحدها وقد تركت ابنها وأمها، كانت تعاني الأمرين وهي تسافر من هنا إلى هنا، بين مشقة عملها ومشقة تركها لأهلها.

ظلت دنيا إلى جانبها تحاول ان تهون عليها الأمر ولا تشعرها أنها وحيدة، وذات يوم بعد يوم عمل شاق طويل تحدثت داليا معها وقالت:

ـ لقد تعبت وأريد أن ارتاح بشدة

ـ سيأتي هذا اليوم، سترتاحي وترين ثمرة تعبك وجهدك عن قريب، ولكن تحملي يا حبيبتي، لقد صبرتِ كثيرا والله سيعوض صبرك خيرا

ـ لم أعد أستطيع الصبر يا دنيا، لقد برك الجمل يا عزيزتي

ـ لا تقولي ذلك أنتِ قوية وستكملي وستنالي ما تريدين وأكثر.

لقد حُرمت داليا من أشياء كثيرة وتحمل المسؤولية وحدها أرهقها، لقد ارادت أن ترتاح بشدة المسكينة.

بعدها بشهران انتشر مرض الكورونا اللعين في كل مكان، ولم يسلم منه بيت، وأصيبت داليا بهذا الداء اللعين مع الأسف، وقد كان وقتها أثناء شهر رمضان الكريم وتحديدا في العشر الأواخر منه، لم تخبر داليا أحد من أهلها بحقيقة مرضها، دنيا فقط من علمت بالأمر، وقتها تملكها الخوف على أختها التي لم تلدها أمها، خاصة وأن المرض لم يرحم بعض من أقاربها وقد ماتوا بسببه بالفعل، وقد حاولت داليا طمئنتها وتهدئتها ولكن هيهات.

اشتد المرض بها وعلم ابنها بمرضها فنقلها إلى المشفى بعد أن تعبت كثيرا، وقلت نسبة الأكسجين عندها، فارتعبت دنيا وأخذت تبكي وتبكي، كانت تتحدث معها باستمرار، وعندما رآها زوجها على هذا الحال وعدها بزيارتها فور أن تتماثل للشفاء، أخذت تحدث نفسها: ياليته وافق أن أراها وأزورها من قبل عندما كانت بخير حال.

تم نقل داليا إلى العناية المركزة، وكانت دنيا تطمئن عليها من ابنها، وجاء العيد ولكن هذه المرة ليس بالبهجة المنتظرة كالعادة، كانت دنيا متعودة أن تصور ابنائها بملابس العيد وتبعث بها إلى داليا لتتشاركا الفرحة معا، وفي ثاني يوم العيد جاءها خبر وفاتها، وقتها انهارت تماما، كانت مصدومة وتبكي باستمرار، لقد عانت كثيرا وذاقت مرارة الفقد مرة أخرى لأخت عزيزة على قلبها، لقد انفصلت عن العالم حرفيا، لم تعد تهتم بشيء أو يفرق معها شيء، ثم لجأت إلى المحادثات القديمة بينهما، أخذتها كلها لقطة شاشة واحتفظت بها، احتفظت أيضا بالمحادثات التي كانت تدور بينهما، لقد خشيت أن تضيع لأي سبب كان وقد كانت الذكرى الوحيدة التي تجمعها بها، كانت تستمع لهذه المحادثات كل فترة، كان نوع من التعذيب البطيء ولكنه كان خارج عن إرادتها.

كانت تهرب إلى النوم هروبا من عالمها الموحش دون صديقتها الغالية، وبعد فترة جفاها النوم يعاندها فلجأت للقراءة عشقها السابق؛ فقرأت كل ما طالته يديها.

ظلت دنيا تدعو لداليا وحاولت بشتى الطرق أن تفعل لها شيئا آخر، فلجأت لمساعدة المرضى كصدقة جارية لها، ولم تتوقف عند ذلك فقد أنشأت صفحة باسمها وأخذت تنشر عليها العديد من الأشياء المفيدة ومنشورات فيها دعاء بالرحمة عليها، ولازالت تحلم بأن تزور بيت الله الحرام وتهدي عمرة لها كما أرادت وتمنت.

كانت دنيا ومازالت مثال يُحتذى به كصديقة مخلصة وفية وأخت حقيقية؛ هذا بالرغم من أنها لم يعد لها اخوات بالفعل، لكنها شكرت الله على نعمة ابنائها اعتبرتهم اخوة لها، كانوا هم عزوتها التي أكسبتها قوة، لكنها شعرت أنها لازالت تعاني من مشكلة التعلق التي لازمتها منذ صغرها وقد بحثت عن أسباب التعلق وعرفت أنه يُرجح يكون نتيجة اضطراب نفسي يتضمن مشكلات كامنة في مرحلة الطفولة، كالإساءة الجسدية والعاطفية نتيجة مشاكل الهجر أو الشعور بالوحدة أو عدم الأمان، وقد كانت هي فريسة لذلك، بحثت عن علاج وحلول لهذا المرض فعرفت أنه للتخلص من التعلق المرضي؛ يجب أن يكون الشخص متصالح مع ذاته، ويشعر بالسلام الداخلي بالاضافة لاتخاذ خطوات عديدة للتحرر من مشاعر التعلق منها:

أولا أن يوطد علاقته مع ذاته ويحرر مشاعره، وذلك يحدث بالمواجهة والاعتراف بنقط الضعف، ثم التصالح مع الذات ومسامحة النفس، ومن الضروري أيضا الحرص على تحرير المشاعر المخزّنة عن طريق الكتابة أو الرسم، أو أي سلوك آخر يساعد على تفريغ الطاقة السلبية وتخفيف الألم النفسي، وهذا ما كانت تحاول فعله من قبل من خلال الأنشطة التي مارستها من قبل.

ثانيا أن يمنح لنفسه مساحته الخاصة؛ حيث يعد تخصيص بعض المساحة في العلاقات أمرا جيدا لكسر التعلق العاطفي بين الطرفين، كالذهاب على سبيل المثال في رحلة قصيرة إلى مكان ما أو قضاء يوم رعاية ذاتية مع الأصدقاء والعائلة.

ثالثا أن يضع الشخص نفسه في المقام الأول، وهنا ضروري أن ينتبه لليقظة الذهنية فهي مفيدة لكسر الارتباط السام، وتقليل القلق وحب التملك تجاه الشريك، إذ يمكن التدرب على اليقظة الذهنية من خلال كتابة اليوميات لاستعادة الاحساس بالهوية الفردية

رابعا أن لا يشغل نفسه كثيرا بالمستقبل حيث من الشائع وضع خطط للمستقبل البعيد؛ بدلا من الاستمتاع في الوقت الحاضر وهذا أكبر خطأ.

منذ أن أدركت هذه الحقيقة وكيفية التحرر من التعلق وتطبيق الخطوات السابقة؛ تغيرت حياتها للأفضل، لقد أصبحت دنيا جديدة تماما، دنيا مستقرة، قوية، صلبة، تواجه الحياة دون قلق أو خوف، لقد تعافت، لم تعد تتعلق بأحد أو بشيء، تعلقت بالله وكفى، ولكن قلبها لازال يحمل حبا كبيرا لصديقتها وفاءا لها ولذكراها.

****

كلمتي الأخيرة

اثنى عشر عاما كانت عمر صداقتهما، كانت كافية لتحفر اسم داليا في قلب دنيا، عندما تعرفتُ على بطلة القصة، كان عن طريق تعليق لها على إحدى قصصي، وقتها شعرت أنها تحمل هم كبير، احترمتها ولم أقتحم خصوصيتها، ولكن ذات مرة كانت هناك صديقة مشتركة بيننا كتبت عن الصداقة، وقتها علقت بطلة قصتنا وتحدثت عن صداقتها مع داليا رحمها الله وأنها مهما مرت بها الأيام والسنين لن تعوضها أبدا، لم أستطع منع نفسي من عدم التدخل، فتحدثت معها خاص وطلبت منها أن تخبرني عن علاقتهما المميزة، وقد كانت بالفعل مميزة جدا كما توقعت.

بطلة القصة تتمنى من الله ثلاث أمنيات، أحدها ذكرتها من قبل ألا وهي زيارة بيت الله الحرام، والثانية هي شفاء ابنتها الكبرى لأنها مريضة شفاها الله وعافاها، والثالثة أن يجمعها الله بصديقتها في الجنة، ففضلا هيا ندعو لها أن تنال مبتغاها ليرتاح قلبها وتكتمل سعادتها الناقصة، وندعو لداليا بالرحمة والمغفرة وهذا هو اسمها الحقيقي بالمناسبة لم نغيره بناءا على طلب بطلة قصتنا .

وفي النهاية

لقد كان لي الشرف أن أسطر حروف هذه القصة وأتمنى أن تكون مصدر إلهام أو قشة يتعلق بها أحدهم في سبيل الوصول لطريق الصواب.

تمت